مجلة المنتدى الأكاديمي (العلوم الإنسانية)
المجلد (8) العدد (2) 2024
ISSN (Print): 2710-446x , ISSN (Online): 2710-4478
تاريخ التقديم: 2024/11/09 ، تاريخ القبول: 2024/11/18، تاريخ النشر: 2024/11/20

تداولية مصطلح العدول عند السكاكي وابن الأثير والعلوي

هالة مصباح علي بن هامل

قسم اللغة العربية، كلية اللغة العربية، الجامعة الأسمرية الإسلامية، ليبيا– زليتن

المستخلص

يكتسب مصطلح العدول تداوليته في كتب البلاغة العربية من كونه مصطلحا بلاغيا من وجه، ومصطلحا دلاليا من وجه آخر، فهو معني بالبيان العربي في لفتاته البلاغية، وهو معني بدلالة الألفاظ في صيغ الاستعمال، ومن ثم فهو يعبر عن الاستعمال غير المألوف للغة، إذ يمثل الانتقال بالألفاظ في النص من سياقها المألوف الاعتيادي إلى سياق جديد خلاف الظاهر، مما يثير التساؤل، ويلفت النظر والانتباه، كما أنه يبرز إمكانات المبدع في استعماله الطاقات التعبيرية الكامنة في اللغة من خلال مراعاة المبدع للمتلقي الذي يجنح نحو التنويع والتجديد، ويبتعد عن التكرار والرتابة التي تبعث في نفسه الملل والضجر؛ لذا فإنه غالبا ما يكون السبب الرئيس في لجوء المبدع إلى أن يُحدث شيئا غير مألوف أو متوقع على مستوى: الأصوات، والكلمات، والصيغ، والمعجم، والأساليب زمنيا ومكانيا، يستدعي التأني والتأمل وإعمال الفكر لمعرفة الهدف منه.

الكلمات المفتاحية: التداولية، العدول، السكاكي، ابن الأثير، العلوي.

المقدمة

تعد التداولية من أهم النظريات النقدية الحديثة، التي انبثقت من التفكير الفلسفي، وتعود جذورها الأولى إلى فلاسفة اليونان أمثال: سقراط وأرسطو، لكنها لم تظهر إلى الوجود إلا على يد موريس وذلك في سنة 1938م، وتزامنت نشأتها مع ظهور جملة من العلوم كاللسانيات وعلم النفس... إلخ، ويعود الفضل في إدخالها في ساحة النقد الأدبي إلى كل من موريس وبيرس وكارناب وأوستين، وإلى ساحة النقد العربي الحديث إلى الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن.

وقد رأيت تقسيم هذا البحث محاولة مني لتسهيل استيعابها والإلمام بجوانبها إلى مطلبين رئيسين:

المطلب الأول: ماهية التداولية، ويضم: أولا- مفهوم التداولية، ثانيا-نشأة التداولية وأهم أعلامها عند الغرب، ثالثا: التداولية عند النقاد العرب، الأوائل منهم والمحدثين، رابعا: خصائص التداولية ودرجاتها.

المطلب الثاني: تداولية مصطلح العدول عند كل من أولا-السكاكي، ثانيا- ابن الأثير، ثالثا- العلوي.

المطلب الأول: ماهية التداولية

للوصول إلى فهم عميق لهذا المفهوم، لابد أولا من الوقوف على المصطلحات المرادفة للتداولية ومعرفة الفروق بينها وأيها الأقرب دلالة للمفهوم، ثم الرجوع إلى جذوره اللغوية، ومعانيها؛ لإدراك العلائق الموجودة بين النظرية التي تحتويها، والتطبيقات التي تمارسها، وأخيرا الوقوف على المفهوم الاصطلاحي وأهم تعريفات علماء التداولية لها.

أولا- مفهوم التداولية

التداولية كمصطلح

لقد أثمرت نظرية التداولية جملة من المصطلحات والمفاهيم، إلى حد التعدد والتداخل، ولعل أول هذا التداخل تداخل مصطلح التداولية مع مصطلح الذرائعية كونها ترجمة لمصطلح أصلي واحد هو (Pragmatique) وهو ما يجعل المصطلحين في تقاربهما يبدوان بمعنى واحد، في حين أن التداولية مذهب ألسني، والذرائعية مذهب فلسفي، مع الإشارة إلى أن الثانية أقدم نسبيا من الأولى، لأنها اسم جديد لطريقة قديمة في التفكير بدأت على يد سقراط، ثم أرسطو (خليل، 1996:214).

كما أن لترجمة مصطلح (Pragmatique) حينا وتعريبه حينا آخر دورا في تعدد المصطلحات الدالة عليه في العربية من منطلق وجهات النظر المختلفة في مقياس المكافئ الأنسب، مما أدّى إلى ظهور مصطلحات شتى مثل: التداوليات، الذرعية، الذرائعية، مذهب الذرائع، النفعية، المقامية، الوظيفية، السياقية، البراغماتية، علم المقاصد...إلخ(عواد، 2011:10).

وقد فضل مصطلح التداولية المفكر المغربي طه عبدالرحمن صاحب الفضل الأول في تشكيل المصطلح واعتماده في بداية السبعينات من القرن العشرين على مصطلح البراغماتية المعرب ذي اللفظ الأجنبي، ولقي منذ ذلك قبولا من لدن الدارسين وصار مصطلحي التداولية والتداوليات أكثر رواجا واستئناسا، بل صار مهيمنا في استعمالات الدارسين والمشتغلين(عواد،2011:10).

التداولية في اللغة

يرجع مصطلح التداول في أصله العربي إلى الجذر اللغوي (دول)، وله معانٍ مختلفة، لكنها لا تخرج عن معاني التحول والتبدل، والنقل والدوران، سواء من مكان إلى آخر أم من حال إلى أخرى، مما يقتضي وجود أكثر من طرف واحد يشترك في فعل التحول والتغير والتبدل والتناقل فقد ورد في أساس البلاغة للزمخشري دول: دالت له الدولة، ودالت الأيام بكذا، وأدل الله بني فلان من عدوهم: جعل الكرة لهم عليه... والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم، وتداولوا الشيء بينهم، والماشي يداول بين قدميه: يراوح بينهما (باسل، 303:1998).

وجاء في لسان العرب لابن منظور تداولنا الأمر: أخذناه بالدُّوَل، وقالوا: دواليك أي مداولة على الأمر... وتداولته الأيدي أخذته هذه مرة وهذه مرة، وأدل الشيء: جعله متداولا (مجموعة من الأساتذة،1455:1981)، كما جاء في مختار الصحاح للرازي: "دول: الدولة في الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى، يقال: كانت لنا عليهم دولة، والجمع الدِّول بكسر الدال، والدُولة بالضم في المال، يقال: صار الفيء دولة بينهم، يكون مرة لهذا ومرة لهذا، والجمع دولات ودول... ودالت الأيام أي درات، والله يداولها بين الناس. وتداولته الأيدي أخذته هذه مرة وهذه مرة" (الرازي،216:1987)، "فالنقل والدوران يدلان بذلك في استخدامها اللغوي على معنى النقلة بين الناطقين أو قل على معنى التواصل، ويدلان في استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين أو قل على معنى التفاعل، فيكون التداول جامعا بين جانبين اثنين هما: التواصل والتفاعل (عبد الرحمن، 244:1996).

أما مصطلح التداولية في أصله الأجنبي (Pragmatique) فإنه يعود إلى الكلمة اللاتينية (Pragmaticus) المبنية على الجذر (Pragma) والذي يعني العمل أو الفعل (Action).

التداولية في الاصطلاح

إن التداولية في أبسط تعريفاتها بمثابة اتجاه في الدراسات اللسانية يُعنى بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب، ويتتبع دراسة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ، بما فيها المدلولات التي يولدها الاستعمال في السياق والتي تشمل:

- معتقدات المتكلم ومقاصده، وشخصيته وتكوينه الثقافي، ومن يشارك في الحدث اللغوي.
- المعطيات الخارجية ومن بينها الظروف المكانية والزمانية، والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة.
- المعرفة المشتركة بين المتخاطبين، وأثر النص الكلامي فيها (السيد، 121:2004).

وتعرف أيضا بأنها:" دراسة اللغة في الاستعمال أو التواصل" (نخلة، 15:2002)، بمعنى دراسة اللغة في سياقاتها الواقعية لا في حدودها المعجمية أو تراكيبها النحوية، أي دراسة الكلمات والعبارات والجمل كما نستعملها ونفهمها ونقصدها، في ظروف ومواقف معينة، لا كما نجدها في القواميس والمعاجم، ولا كما تقترحها الكتب (يزيد، 19:2010).

ويعرفها فرانسواز ريكاناتي بأنها" بحث يهتم بدراسة استعمال اللغة داخل الخطاب، وإبراز السمات التي تميزه، وتهتم ببعض الأشكال اللسانية التي لا يتحدد معناها إلا من خلال استخدامها (ريكاناتي، 151:2016)، ويعرفها فرانسيس جاك بأنها "تتطرق إلى اللغة كظاهرة خطابية تواصلية واجتماعية معا" (أرمينكو، 6:1986).

وعليه يمكن القول بأنها تهتم بدراسة اللغة أثناء استعمالها واستخدامها في سياق تخاطبي ما، مع مراعاة كل ما يحيط بأطراف العملية التخاطبية بُغية الوصول إلى المعنى وإحداث الأثر المناسب الذي سطره المخاطب منذ البداية في ذهنه.

ثانيا– نشأة التداولية وأهم أعلامها عند الغرب

يرجع أول استعمال لمصطلح التداولية إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس سنة 1938م في كتابه (أسس نظرية العلامات)، وقد أدرجها ضمن أحد الفروع المكونة للسيميائية، ألا وهو علم العلامات والمتمثل في(نخلة، 9:2002):

- علم التراكيب: ويعني به دراسة العلاقات الشكلية بين العلامات.
- علم الدلالة: ويدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدل أو تحيل إليها.
- التداولية: وتهتم بدراسة علاقة العلامات بمفسريها.

ومن ثم فالتداولية عنده تهتم بدراسة العلاقة بين العلامات ومستعمليها أي مفسريها، وتحديد ما يترتب عن هذه العلامات من ردود فعل، وذلك لأن الكلام الإنساني ذو طبيعة اجتماعية نفسية، وخاضع لقوى خارجية تؤثر في عنصري الإلقاء والتلقي، وبالتالي في عملية الفهم والإفهام.

إلا أن هذا لا يعني أنها صارت مستقلة بنفسها، فهي لم تصبح مجالًا يُعتد به في الدرس اللغوي المعاصر حتى العقد السابع من العقد العشرين بعد أن قام بتطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي وهم: أوستين، وسيرل، وغرايس الذي كان جل اهتمامهم منصبا حول طريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ رسالة إلى مستقبل يفسرها؛ لذا ألقى جون ستين سنة 1955م،

سلسلتي محاضرات قدمت بجامعة هارفارد (محاضرات وليم جايمس)، ثم ألقاها سنة 1967م بول غرايس، فقد أدخل أوستين في سلسلة محاضراته المخصصة للفلسفة مفهوم العمل اللغوي الذي أصبح فيما بعد بعدا محوريا في التداولية (موشلر، وريبول، 21:2010).

يجعل أوستين وتلميذه سورل فلسفة اللغة العادية نواة لتأسيس التداولية، ويحدد مصدرها في التفكير انطلاقا من إشكالية أفعال الكلام التي طورت التفكير في آليات معالجة اللغة كالحجاج وأنواع الخطاب (بوجادي، 68:2009).

أما فرانسواز أرمينيكو فقد حدد المفاهيم الأكثر أهمية في التداولية في ثلاث مفاهيم أساسية هي:

1- مفهوم الفعل: وينتبه إلى أن اللغة لا تخدم فقط تمثيل العالم، بل تخدم إنجاز الفعل، فالكلام هو أن تفعل.
2- مفهوم السياق: ويقصد به الوضعية الملموسة التي توضع وتنطلق من خلالها مقاصد تخص المكان والزمان...إلخ، وكل ما يحتاج إليه للفهم وتقييم القول، وهكذا تدرك أهمية السياق حين تنقل المقاصد عبر وسيط، وفي حالة معزولة عن السياق.

مفهوم الإنجاز: ويقصد به إنجاز الفعل في السياق إما بمحايثة لقدرات المتكلمين، أي معرفتهم وإلمامهم بالقواعد، وإما يتوجب إدماج التمرس اللساني بمفهوم أكثر تفهما كالقدرة التواصلية (أرمينكو، 7:1986).

ثالثا: التداولية عند العرب

1- عند الأوائل

يمكن القول بأن موضوع التداولية في التراث العربي موضوع له امتداده في أغلب كتب التراث العربي بشيء من الوعي والتركيز، فـ" النحاة والفلاسفة المسلمين والبلاغيين والمفكرين مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بصفته فلسفة وعلما، ورؤية واتجاها أمريكيا وأوروبيا، فقد وظف المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلاقات المتنوعة" (سويرتي، 8:2000)، فقد درسوا البنية وخصائصها وعلاقاتها بالمقامات، ووصلوا بين المقال والمقام، وقد جاء مفهوم التداولية في نظر بعض النقاد ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة (مقتضى الحال) التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية "لكل مقام مقال"(فضل، 21:1992)، كما أن البلاغة في جوهرها تداولية لأنها " ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما" (فضل، 89:1992).

وقد شكلت نظرية الاتصال بأبعادها التداولية حقلا نظريا وتطبيقيا مهما في الدراسة البلاغية، خصوصا على مستوى نظرية التأثير والمقام، فالمتكلم حين يراعي مقام الخطاب وأحوال السامع وأشكال إلقاء الخبر إليه، وأنماط الطلب التي ينشئها، فهو يستحضر السامع في كل عملية إبلاغية ولو بصورة ذهنية (بوجادي، 175:2009).

ولعل الجاحظ (ت255هـ) يمثل الأنموذج الأبرز في تحقيق البعد التداولي، فقد تحدث بصورة منهجية دقيقة وواعية عن فعل التواصل والتخاطب وما ينبغي للأطراف مراعاته خلال ذلك في إطار البعد التداولي للاتصال في قوله: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة في ذلك مقاما، حتى يقسم الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات".(الجاحظ، د.ت: 138-139).

وعبد القاهر الجرجاني من خلال دراسته للنظم الذي هو تعليق الكلم بعضها ببعض يشير إلى أن اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيه في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء حروف لما وقع في ضميرٍ ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم.(الجرجاني، 102:2007)، إن الجرجاني من خلال قوله يشير إلى أن النفس البشرية ترتب المعاني قبل عملية التأليف، وقبل عرضها على السامع.

أما السكاكي فيعرف علم المعاني بقوله:" تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره؛ ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره" (السكاكي، 161:1987)، ويبين السكاكي في قوله هذا أن تتبع خواص تراكيب الكلام يفيدنا في تأويل الأقوال واكتشاف ما ترمي إليه من معاني ودلالات، ومن ثم وفق المتكلم بين القول وما يقتضيه.

2- عند المحدثين

الحديث عن التداولية عند المحدثين يكاد ينحصر في نطاق إعادة قراءتهم للتراث القديم، واستخلاص آراء التداولية المبثوثة في كثير من مصادره.

يرى العمري في كتابه (البلاغة العربية) أن للتداولية الحديثة بعدا جاحظيا في أصله لاهتمام الجاحظ وتركيزه في كتابه البيان والتبيين على عملية التأثير في المتلقي، والإقناع تحت مسمى نظرية التأثير والمقام، والتي تعرف اليوم بالتداولية يقول:" إن هذا البعد هو أحد الأبعاد الأساسية في البلاغة العربية،

وهو بعد جاحظي في أساسه، وإن تخلي البديعيين عنه في مرحلة لاحقة أدى إلى اختزال البلاغة العربية وتضييق مجالها، وتحظى نظرية التأثير والمقام حاليا بعناية كبيرة في الدراسات السيميائية، ومن ثم الشروع في إعادة الاعتبار إلى البلاغة العربية تحت عنوان جديد هو التداولية (بوبكري، 15:2002).

أما الفيلسوف المغربي طه عبدالرحمن فيجعل التداولية تختص بوصف كل ما كان مظهرا من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس وخاصتهم، فالمقصود بمجال التداول في التجربة التراثية هو إذن محل التواصل والتفاعل بين صانعي التراث (لهويمل، 159:2011)، فالتداولية تقوم بدراسة اللغة أثناء عملية التخاطب مراعية في ذلك كل ما يحيط بها لإيصال المعنى المناسب بحسب قصد المتكلم من أجل ضمان نجاح الخطاب المتداول بين المرسل والمرسل إليه.

رابعا- خصائص التداولية ودرجاتها

خصائص التداولية

لقد حدد بعض الباحثين ما تتميز به التداولية عن غيرها من اتجاهات البحث اللساني بما يأتي:(نخلة، 2002 :14-15).

1 – تقوم التداولية على دراسة الاستعمال اللساني، وموضوع البحث فيها هو توظيف الدلالة في الاستعمال الفعلي من حيث هو صيغة مركبة من مقتضى الحال الذي يولد الدلالة.

2 – تدرس التداولية اللغة من وجهة وظيفية معرفية، واجتماعية، وثقافية.

3 – تعد التداولية نقطة التقاء مجالات العلوم ذات الصلة باللغة بوصفها أداة وصل بينها وبين لسانيات اللغة.

4 – ليس للغة وحدات تحليل خاصة بها، ولا موضوعات مترابطة.

وانطلاقا من هذه الخصائص توصل العلماء المهتمون بالتداولية، ومنهم أوستين إلى تقسيم الجمل إلى وصفية وإنشائية، فالوصفية تقابل في اللغة العربية الجملة الخبرية، ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، فهي صادقة إذا كان الوضع الذي تصفه قد تحقق في الواقع، وهي كاذبة بخلاف ذلك، وتنفرد الإنشائية بعدد من الخصائص، كأن تكون من قبيل الطلب والوعد والوعيد، لا تقبل الحكم عليها بمعيار الصدق والكذب.

درجات التداولية

يمكن تقسيم التداولية إلى ثلاث درجات مختلفة حسب درجة تعقيد السياق من جزء إلى آخر، وهذه الدرجات هي: (دفة، 495:2014، حيدرة، 2018: 13- 14).

1 – تداولية من الدرجة الأولى: تهتم بدراسة الرموز الإشارية التي تحيل على المخاطبين، وإلى الزمان والمكان، وتهتم أيضا بدراسة البصمات التي تشير إلى عنصر الذاتية في الخطاب، وتتحدد دلالتها من خلال السياق.

2 – تداولية من الدرجة الثانية: تتضمن دراسة الأسلوب أو الطريقة التي تعبر بواسطتها عن مسائل مطروحة، وتتناول كيفية انتقال الدلالة من مستوى الأسلوب الصريح إلى الأسلوب الضمني (التلميح)، وأهم نظرياتها: نظرية الحجاج، قوانين الخطاب، مبادئ الكلام، والأقوال المتضمنة، أما سياقها فموسع، لأنه لا يهتم بمظاهر الزمان والمكان، بل يتعداها إلى المبادئ والاعتقادات المتبادلة بين المتكلمين.

3 – تداولية من الدرجة الثالثة: هي نظرية أفعال الكلام لأوستين التي تفيد أن الأقوال المتلفظ بها لا تصف الوضع الراهن للأشياء فحسب، بل إنها تنجز أفعالا، ويكون السياق في هذه الحالة هو الذي يحدد فيما إذا تم التلفظ بجملة وصفية أو إنشائية.

وبالعموم فإن المنهج التداولي هو مستوى تصنيف إجرائي في الدراسات اللغوية يتجاوز دراسة المستوى الدلالي، ويبحث عن علاقة العلامات اللغوية بمؤوليها، مما يبرز أهمية دراسة اللغة عند استعمالها، ومن ثم فإنه يعنى بدراسة مقاصد المتكلم، وكيف يستطيع المرسل أن يبلغها في مستوى يتجاوز مستوى دلالة المقولة الحرفية، كما يعنى المنهج التداولي بكيفية توظيف المرسل للمستويات اللغوية المختلفة في سياق معين، حتى يجعل إنجازه ملائما لذلك السياق، وذلك بربط إنجازه اللغوي بعناصر السياق الذي حدث فيه، فمنها ما هو ذاتي مثل مقاصد المتكلم ومعتقداته، واهتماماته ورغباته ظن ومنها المكونات الموضوعية، أي الوقائع الخارجية، مثل زمن القول ومكانه، وكذلك العلاقة بين طرفي الخطاب، وبهذا يتم تحديد الدلالة عند المتلقي، إذ يعتمد عليها في تأويل الخطاب في سيلق معين، كما يعين على معرفة أثر السياق في لغة الخطاب عند إنتاجه.

المطلب الثاني: تداولية مصطلح العدول عند كل من : السكاكي ، وابن الأثير ، والعلوي

أبي بكر محمد بن علي السكاكي (555– 626هـ)

ذكر السكاكي مصطلح العدول صريحا في كتابه مفتاح العلوم في ثلاثة مواضع، **أولها:** عند حديثه عن المسند إليه إذا كان اسما موصولا، فقال:" والعدول عن التصريح باب من البلاغة يصار إليه كثيرا" (السكاكي،1987: 181)، أي أن العدول عن التصريح بالاسم إلى غيره فن بلاغي يصار إليه كثيرا، **وثانيها:** في حديثه عن تقديم المسند إليه على المسند فقال أنه يقدم "متى كان ذكره أهم، ثم إن كونه أهم، يقع باعتبارات مختلفة، إما لأن أصله التقديم ولا مقتضى للعدول عنه...".(السكاكي،1987:194)، ويفهم من ذلك أن هذا التقديم يقصد لأغراض بلاغية، وإلا فلا مقتضى للعدول عن التقديم.

وثالثها: في حديثه عن الغاية من التقديم والتأخير وهي "كون العناية بما يقدم أتم، وإيراده في الذكر أهم، والعناية التامة بتقديم ما يقدم، والاهتمام بشأنه نوعان: **أحدهما** أن يكون أصل الكلام، وذلك هو التقديم، ولا يكون في مقتضى الحال ما يدعو إلى العدول عنه، كالمبتدأ المعّرف، فإن أصله التقديم على الخبر نحو: (زيد عارف" (السكاكي،263:1987)، ويوضح السكاكي خلال النص السابق عملية العدول في تقديم المسند إليه المضمر على مسنده الفعل، وتقدم المبتدأ النكرة على فعله لإفادة التخصيص، ففي الحالة الأولى يقدم المثال (أنا عرفتُ وأنت عرفتَ) باعتباره عدولا عن النمط المألوف في اللغة، وهو نمط افتراضي يعتمد على تأخر الضمير عن فعله، وفي الثانية يقدم المثال (رجل جاء) باعتباره عدولا عن الأصل الذي هو (جاء رجل)، على أساس أن (رجل) بدل من الفاعل المستتر في جاء، فالسكاكي لجأ إلى التقدير الذي يفيد إفادة بلاغية هي الاختصاص، إذ الأصل تأخر النكرة في مثل التركيب السابق.(عبد المطلب، 2009: 272-273).

وذهب باحث معاصر إلى أن السكاكي أورد مصطلح العدول بمعنى الميل، أو الانحراف مرة واحدة (سلطان،124:2007)، وهي ما ذكر هنا في الموضع الثالث، والظاهر أن السكاكي يستعمل عبارة إخراج الكلام على مقتضى الظاهر وإخراجه لا على مقتضى الظاهر بمعنى العدول، ولو أن مصطلح العدول كان متداولا بين النحاة والبلاغيين القدماء، لفضله السكاكي على جملته العريضة.(سلطان،124:2007)

والقارئ يرى مدى إدراك السكاكي للعدول والمنحى الفني فيه في كثير من المواضع فهو يرى أن الكلام كلما فارق الأصل المثالي ازداد جمالا بظهور التفاوت بين ذلك الأصل المثالي، وبين ما جاء عليه نظم القرآن، ففي قوله تعالى: "رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا" (سورة مريم، آية4) جملة لطائف لا تبرز إلا بمعرفة الأصل؛ إذ "لا شبهة أن أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى: يا ربي قد شخت، ثم تُركت هذه المرتبة لتوخي مزيد التقدير على تفصيلها في: ضعف بدني، وشاب رأسي ثم تركت هذه المرتبة الثانية؛ لاشتمالها على التصريف إلى ثالثة أبلغ، وهي الكناية على المبتدأ، فحل: إني وهنت عظام بدني، ثم لطلب تقرير أن الواهن هي عظام بدنه، قصدت مرتبة سادسة، وهي سلوك طريق الإجمال والتفصيل، فحصل: إني وهن العظم من بدني... ثم لطلب شمول الوهن للعظام فردا فردا، قصدت مرتبة ثامنة، وهي ترك جمع العظم إلى الإفراد لصحة حصول وهن المجموع بالبعض... وهكذا تركت الحقيقة في شاب رأسي إلى أبلغ، وهي الاستعارة... ثم تركت إلى أبلغ وهي اشتعل رأسي شيبا" (السكاكي،1987: 286-287) فالسكاكي يرى أن العدول هنا أبلغ من عدة جهات، **إحداها:** إسناد الاشتعال إلى الرأس لإفادة شمول اشتعال الرأس؛ إذ وازن (اشتعل شيب رأسي، واشتعل رأسي شيبا) و(اشتعل النار في بيتي، واشتعل بيتي نارا) والفرق بيّن، **وثانيها:** الإجمال والتفصيل في طريق التمييز، **وثالثها:** تنكير (شيبا) لإفادة

المبالغة، ثم ترك (اشتعل رأسي شيبا)، ثم ترك لفظ (مني) لقرينة عطف (واشتعل الرأس) على(وهن العظم مني) لمزية مزيد التقرير، وهي إبهام تأدية مفهومه على العقل دون اللفظ. (السكاكي،1987: 286-287)

ضياء الدين ابن الأثير (558- 637هـ)

ورد مصطلح العدول في المثل السائر في كثير من المواضع، منها:

1- في حديثه عن الصياغة اللفظية والترادف في الألفاظ "بإيراد بعض الألفاظ سعة في العدول عنه- اللفظ- إلى غيره مما هو في معناه وهذه الأسماء تسمى المترادفة وهي اتحاد المسمى واختلاف أسمائه كقولنا الراح والخمر والمدام فإن المسمى بهذه الأسماء شيء واحد وأسماؤه كثيرة". (ابن الأثير، د.ت:50/1).

2 – وفي بيان الغرض من التزام ما لا يلزم، فقال:" لأن الملتزم ما لا يلزم له مندوحة في العدول إلى غيره" (ابن الأثير ،د.ت،287/2)، أي أنه يحقق بالعدول إليه غرضا بلاغيا ما كان ليدركه لولا هذا العدول.

3 – في بيان اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها حسب السياق الواردة فيه، كلفظة اللب الذي هو العقل، فإنها لا تحسن في الاستعمال إلا مجموعة، وكذلك وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وهي مجموعة، "ومن هذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ولا يستفتى في ذلك إلا الذوق السليم وهذا موضع عجيب لا يعلم كنه سره". (ابن الأثير، د.ت:297/1)

4 – عند تناوله للتوسع في الكلام عن طريق العدول عن الحقيقة إلى المجاز، فقال:" وأما القسم الثاني الذي يكون العدول فيه عن الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول إليه، فذلك لا يكون إلا لطلب التوسع في الكلام المطلوب".(ابن الأثير ،د.ت:78/2).

5 – تناول ابن الأثير العدول من خلال حديثه عن الالتفات، وهو يرى أن حد الالتفات هو العدول، أو الانتقال من صيغة إلى صيغة، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل...إلخ، يقول:" واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا نوع خصوصية اقتضت ذلك وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارهما وفتش عن دفائنهما ولا تجد ذلك في كل كلام فإنه من أشكل ضروب علم البيان وأدقها فهما وأغمضها طريقا".(ابن الأثير، د.ت، 180/2). وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة؛ لفوائد متعددة، يحددها سياق الخطاب، كتطرية نشاط السامع، وإيقاظه للإصغاء إليه. (ابن الأثير، د.ت: 168/2).

القسم الثاني: هو العدول عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر، حيث قال: (وليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلبا للتوسع في أساليب الكلام فقط... وإنما يقصد إليه تعظيما لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل، وتفخيما لأمره، وبالضد من ذلك فيمن أجرى عليه فعل الأمر. (ابن الأثير، د.ت: 179/2).

القسم الثالث: الإخبار عن الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضي. (ابن الأثير، د.ت: 184).

وقد مثل لهذه الأقسام الثلاثة بالعديد من الشواهد، وحللها، وبين نوع العدول فيها، والغرض البلاغي من ورائه، فـ" العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك كما مر بنا قبل قليل، ويقول في موضع آخر مبينا تعدد الأغراض المقصودة من العدول بتعدد مواقعه: "إن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر، وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه" (ابن الأثير، د.ت: 170/2).؛ ولذلك فقد تتعدد الأهداف الدلالية للعدول، وقد تنقلب الدلالة في أسلوب إلى نقيضها في أسلوب آخر مماثل للأول في بنيته المخالفة لمقتضى الظاهر، ويرجع ذلك إلى اختلاف السياق وقرائن الأحوال.

6 – استحسن ابن الاثير العدول في حروف الجر، حيث يمثل سمة إبداعية في الخروج عن النمط المألوف في الاستعمال، فلكل حرف من الحروف معنى محدد، ومعنى الحروف هو وظيفتها في آن واحد، ولكن إذا أريد استعمالها في غيره، أي بالعدول عن معناها الأصلي إلى معنى آخر حققت أغراضا بلاغية ما كانت لتدرك لولا هذا العدول. (عبد المطلب، 2009: 286).

7 – ورد مرتين في حديثه حول الحكم على المعاني والإحاطة بأساليب المعاني على اختلافها وتباينها، فالأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل، وذلك كقوله تعالى: "وثيابك فطهر"(سورة المدثر، الآية4) فالثياب ما يلبس ومن تأول جعل المراد بها هو القلب لا الملبوس، واشترط فيه ابن الأثير وجود دليل ؛لأنه عدول عن ظاهر اللفظ وهذه هي الأولى، وكقول عيسى بن مريم عليه السلام: (إذا أردت أن تصلي فادخل بيتك واغلق بابك) فالظاهر هو البيت والباب، ومن تأول جعل المعنى: تجمع عليك هم قلبك وتمنع أن يخطر به سوى الصلاة، قال ابن الأثير: وهذا يحتاج إلى دليل "لأنه عدول عن ظاهر اللفظ".(ابن الأثير، د.ت: 55/3)، وهذه هي المرة الثانية التي ذكر فيها مصطلح العدول في هذا الباب.

8 – في الكناية واشتقاقها من كنيت الشيء إذا سترته، وهي على هذا من المجاز؛ لأن الحقيقة تفهم أولا بينما يفهم المجاز بعد فهم الحقيقة؛ ولهذا يحتاج إلى دليل "لأنه عدول عن ظاهر اللفظ"، ففي قوله تعالى:

"أو لامستم النساء" (سورة المائدة، الآية7). يتسارع الفهم فيه إلى الحقيقة التي هي مصافحة الجسد للجسد، (وأما المجاز الذي هو الجماع فإنه يفهم بالنظر والفكر، ويحتاج الذاهب إليه إلى دليل، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ".(ابن الأثير، د.ت:54/3) .

9 – في الفرق بين الاستعارة والكناية، يقول:" والكناية ضد الصريح لأنها عدول عن ظاهر اللفظ".(ابن الأثير، د.ت: 55/3)، .

لقد طور ابن الأثير مصطلح العدول، إذ نقله إلى مجال أوسع من سابقيه، إذ جعله يشمل الانتقال من صيغة إلى صيغة، ومن أسلوب إلى أسلوب، سواء أكان انتقالا بين الضمائر، كالعدول عن الخطاب إلى الغيبة، أو عن الغيبة إلى التكلم، ونحوه، أم كان بين الأفعال كالعدول عن الماضي إلى المستقبل، وعكس ذلك، أم كان استبدال كلمة بأخرى، أم كان تناوبا بين حروف الجر، أم إيثارا لبنية على أخرى، أو تركيب على آخر، وبذلك أحدث تآلفا تاما بين ثنائية التخيير والتركيب، أو المستوى الأفقي والمستوى الرأسي، كما كشف عن علاقة العدول بالإيجاز؛ لأن ترابط الأساليب وتلاحقها، وبحث العلاقة فيما بينها مما يدلل على أن اللغة الأدبية كانت تعتمد على الإيجاز لاستيفاء المعنى، وإشراك المتلقي.(شبابيك، https://palstinebooks.blogspot.com)

يحي بن حمزة العلوي (669– 745هـ)

اقتفى العلوي في كتابه الطراز أثر ابن الأثير في فهمه وتناوله لمصطلح العدول، كما اقتفاه في أغلب شواهده أو تطبيقاته عليه؛ ذلك لأن المثل السائر يعد أحد أهم المصادر التي نقل منها العلوي واعتمد عليها في طرازه. (المراغي،1950م:138)، وقد ورد مصطلح العدول عند العلوي كذلك في العديد من المواضع، أهمها:

1 – في تفسيره لقوله تعالى:" والراسخون في العلم"(سورة آل عمران، الآية7)، حيث قال:" والمختار عندنا في الآية أن الراسخين مرفوع على الابتداء ويقولون خبره، وأن الواو عاطفة لجملة على جملة، فيكون التقرير: فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه، وأما الراسخون فيقولون: آمنا به كل من عند ربنا، وعلى ما اخترناه أوجه؛ أما أولا فلأن ظاهر الواو للعطف، فلا يجوز العدول عنه من غير دليل، وإذا وجب العطف فلا يجوز عطف الراسخين على قوله: إلا الله".(العلوي، د.ت: 24/2) .

2 – في حديثه عن الغرض من العدول عن الحقيقة إلى المجاز يقول:" اعلم أن الحقيقة إذا كانت هي الأصل في الكلام كما ذكرتم، فلأي شيء يكون التكلم بالمجاز، وما الباعث عليه فنقول: العدول عن الحقيقة إلى المجاز قد يكون لأمر يرجع إلى اللفظ وحده، وإلى المعنى وحده، وإليها جميعا، فهذه مقاصد ثلاثة".(العلوي، د.ت: 44/1)، وبين أنه لا فائدة من العدول إلى المجاز مع إمكان الحقيقة، فقال: "لا

فائدة في العدول إلى المجاز مع إمكان الحقيقة، فالعدول إليه يكون عبثا لا حاجة إليه".(العلوي، د.ت: 47/1)

3 – في تناوله لتقديم المسند إليه على المسند، يقول:" وذلك يكون لأحوال نرمز إلى شيء منها، إما لأن تقديمه هو الأصل ولم يعرض ما يقتضي العدول عنه، وإنما كان هو الأصل من جهة أنه طريق إلى معرفة ما يذكر بعده، ومن اشترط تعريفه إلا بعارض". (العلوي، د.ت: 149/3)

4 – في حديثه عن الكناية، حيث قال:" اعلم أن ما ذكره ابن سراج المالكي في تعريف الكناية، وإن كان أسلم مما حكاه ابن الأثير، وأدخل في التحقيق، لكنه لا يخلو عن نظر من وجهين، أما أولا فلأن ما ذكره حاصل في الاستعارة في نحو قولك: رأيت الأسد، ولقيت البحر، فإنك تركت التصريح بقولك لقيني الشجاع إلى لفظ الأسد، والكريم إلى لفظ البحر، والكناية مخالفة للاستعارة في ماهيتها، فلا يخلط أحدهما بالآخر، وأما ثانيا فإن قوله:(إلى مساويه في اللزوم لينتقل منه إلى الملزوم) إن أراد بالملزوم المدلول، فذكر المدلول أوضح فلا حاجة إلى العدول عنه، وإن أراد به معنى آخر غير المدلول خطأ لا فائدة فيه؛ لأنه لا مشاركة بينهما إلا في مدلولهما لا غير، ولهذا كان كناية عنه".(العلوي، د.ت: 188/1)

5 – في تناوله لبعض الأخبار الدالة على الأعضاء والجوارح في حق الله تعالى، وبيان أن علماء البيان وضعوها على معانيها اللغوية في كونها دالة على هذه الجوارح، لكنهم قالوا أن الجارحة خيالية غير متحققة، وقد قال العلوي: "كان تأويلهم لها أقرب لما كانت دالة على ما وضعت له في الأصل من غير عدول ولا مخالفة". (العلوي،د.ت:3/9-10).

6 – وقد عد الالتفات لون من ألوان العدول، وصورة من صوره، وقد جعله من شجاعة العربية. (العلوي، د.ت: 132/2)؛ فمخالفة النمط المألوف يمثل إقداما من المتكلم على الخروج عن الشائع من الكلام، حيث قال:" ولا شك أن الالتفات مخصوص بهذه اللغة دون غيرها، ومعناه في مصطلح علماء البلاغة، هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول وهذا أحسن من قولنا هو العدول من غيبة إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة"(العلوي، د.ت: 71/2).

أما في التطبيق فلا يقف العلوي عند فهمه للعدول عند باب الالتفات، إنما يجعله شاملا لكل انحراف أو خروج على القاعدة أو الأصل، سواء أكان ذلك متعلقا بالألفاظ أم بالتراكيب، إذ تحدث عن العدول من صيغة إلى صيغة بإيثار كلمة على أخرى، وعن العدول في الإعراب من وجه إلى وجه، والعدول عن استخدام حرف من الحروف إلى حرف آخر، أو ما يعرف بالتناوب، والعدول في مباحث التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والفصل والوصل، وغير ذلك.

وقد وافق الزمخشري في رؤيته للعدول من أسلوب إلى أسلوب إيقاظ للسامع، والتطرية له بنقله من خطاب إلى خطاب آخر؛ لأن السامع ربما مَلّ من أسلوب فينقله إلى أسلوب آخر تنشيطا له في الاستماع. (عبد المطلب، 278:1987)، والرجوع من أسلوب الخطاب إلى أسلوب الغيبة يزيد في البلاغة ويحسنها، ويكون الخطاب أوقع وأكشف عن المراد.(العلوي، د.ت: 135/2).

الخاتمة

وقفت هذه الورقة البحثية عند تداولية مصطلح العدول عند كل من السكاكي وابن الأثير والعلوي، وخلصت إلى بعض النتائج، أهمها:

1- تعرف التداولية بأنها: دراسة اللغة في الاستعمال أو التواصل كظاهرة خطابية تواصلية واجتماعية معا.
2- يرجع أول استعمال لمصطلح التداولية إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس سنة 1938م في كتابه (أسس نظرية العلامات).
3- فضل طه عبدالرحمن مصطلح التداولية على مصطلح البراغماتية المعرب ذي اللفظ الأجنبي، ثم صار مصطلحا التداولية والتداوليات أكثر رواجا واستئناسا، بل صار مهيمنا في استعمالات الدارسين.
4- استخدم السكاكي وابن الأثير والعلوي مصطلح العدول بمعنى الانتقال من أسلوب لآخر، ومن سمة إخبارية إلى أخرى إنشائية، وبهذا المعنى يكون مطابقا لمعنى العدول في الأسلوبية الحديثة.
5- أنهم لم يفردوا له بابا مستقلا يحمل اسمه، لكنهم استخدموه في ثنايا حديثهم عن: التقديم والتأخير عند السكاكي، وآلات علم البيان وأدواته، واختلاف صيغ الألفاظ، والاستعارة، والالتفات عند ابن الأثير، والحقيقة والمجاز، والكناية، وخصائص المسند والمسند إليه، والفصل والوصل عند العلوي.

المصادر والمراجع:

المصادر

- القرآن الكريم.
- أحمد مصطفى المراغي.1950م. تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها. ط1. القاهرة: مصطفى الحلبي.
- أديس لهويمل.2011م. التداولية والبلاغة العربية. مجلة المخبر. أبحاث في اللغة والأدب الجزائري. جامعة محمد خيضر. بسكرة. العدد7.
- بلقاسم دفة. 2014م. استراتيجية الخطاب الحجاجي. دراسة تداولية في الإرسالية الإشهارية العربية. مجلة المَخْبَر. جامعة بسكرة. الجزائر. العدد 10.
- ابن الأثير. (د.ت). المثل السائر. تحقيق: بدوي طبانة وأحمد الحوفي. القاهرة: دار نهضة مصر.
- ابن منظور. 1981م. لسان العرب.ط1. تحقيق: نخبة من الأساتذة. القاهرة: دار المعارف.

– بهاء الدين محمد يزيد. 2010م. تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي. ط1. القاهرة: دار شمس.
– الجاحظ. د.ت. البيان والتبيين. ط3. تحقيق: عبدالسلام هارون. القاهرة: مؤسسة الخانجي.
– جاك موشلر، آن ريبول 2010م. القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين. تونس: دار سيناترا – المركز الوطني للترجمة.
– الجرجاني.2007م. دلائل الإعجاز. ط1. تحقيق: محمد رضوان الداية، فايز الداية. دمشق: دار الفكر، دمشق.
– حامد خليل.1996م. المنطق البراغماتي عند تشارلز بيرس. مصر– لبنان: دار الينابيع.
– حمود أحمد نخلة.2002م. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
– خليفة بوجادي.2009م. في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم. ط1. الجزائر: دار بيت الحكمة.
– الرازي.1987م. مختار الصحاح. ترتيب: محمود خاطر، حمزة فتح الله. بيروت: دار البصائر–مؤسسة الرسالة.
– راضية بوبكري. 2002م. التداولية وتحليل الخطاب مقاربة نظرية. أعمال ملتقى اللغة العربية والمصطلح. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة باجي مختار.
– رشيد حيدرة.2018م. تداولية الخطاب النحوي بين الضابط القواعدي والاستعمال الوظائفي. رسالة دكتوراه. جامعة عبدالحميد بن باديس. الجزائر.
– الزمخشري.1998م. أساس البلاغة. ط1.تحقيق: محمد باسل. بيروت: دار الكتب العلمية.
– السكاكي.1987م. مفتاح العلوم. ط2. تحقيق: نعيم زرزور. بيروت: دار الكتب العلمية.
– صلاح فضل.1992م. بلاغة الخطاب وعلم النص. الكويت: سلسلة عالم المعرفة.
– طه عبدالرحمن. 1996م. تجديد المنهج في تقويم التراث. ط2. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
– عبد الحميد السيد. 2004م. دراسات في اللسانيات العربية. عمّان: دار الحامد.
– عبد القادر عواد.2011م. آليات التداولية في الخطاب، الخطاب الادبي أنموذجا. مجلة علامات. الجزء 74. المجلد 19.
– العلوي، (د.ت) الطراز، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.
– عيد محمد شبابيك، استثمار الاسلوب العدولي في تذوق النص القرآني. مكتبة فلسطين للكتب المصورة https://palstinebooks.blogspot.com
– فرانسواز أرمينكو.1986م. المقاربة التداولية. ط1. ترجمة: سعيد علوش. الرباط: مركز الإنماء القومي.
– فرانسواز ريكاناتي.2016م. فلسفة اللغة والذهن. ط1. ترجمة: حسين الزاوي. دار الروافد الثقافية.
– محمد عبد المطلب، 2009م، البلاغة والأسلوبية، (د. ط)، القاهرة: الشركة المصرية العالمية.
– مد سويرتي.200م. اللغة ودلالاتها تقريب تداولي للمصطلح البلاغي. مجلة عالم الفكر. المجلد 28. العدد 3. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
– منير سلطان. 2007م. العدول في شعر ابن هرمة. (د. ط). الإسكندرية: منشأة المعارف.

Pragmatics of the term "Deviation" in the works of Al-Sakkaki, Ibn Al-Athir, and Al-Alawi

Halah Misbah Ali Bin Hamil

Department Arabic Language, Arabic Language Faculty,
Al Asmarya Islamic University, Zliten-Libya

Abstract

The term "deviation" gains its pragmatics in Arabic rhetorical texts by being, on one hand, a rhetorical term and, on the other hand, a semantic term. It is concerned with Arabic expression in its rhetorical nuances, and it also pertains to the significance of words in terms of their usage. Thus, it reflects the unusual use of language, representing the transition of words in a text from their usual context to a new context that contradicts the apparent meaning. This transition provokes questions and captures attention, showcasing the creator's ability to utilize the latent expressive capacities of the language while considering the audience, who tends toward variety and renewal, avoiding repetition and monotony that lead to tedium and fatigue. Therefore, it often serves as the main reason for the creator's resorting to introducing something unexpected or unusual at the levels of sounds, words, forms, vocabulary, and styles, both temporally and spatially, necessitating contemplation and reflection to understand its purpose.

Keywords: pragmatics, deviation, Al-Sakkaki, Ibn Al-Athir, Al-Alawi.